
الطبيعة الصامتة في شعر عمرو بن شأس الأسدي

د.عبدالفتاح إسماعيل عبدالله أحمد*

ملخص الدراسة:

يسعى البحث إلى دراسة مفردات الطبيعة الصامتة في شعر عمرو بن شأس الأسدي، ودورها في تشكيل معمارية النص الشعري، وما تؤديه إلى جانب ذلك من دورٍ دلالي أو إيحائي وفقاً للسياقات الشعرية المتعددة الأغراض التي ترد فيها، وما لذلك من انعكاسٍ على شخصية الشاعر، ونفسيته في تجسيد أحاسيسه ومشاعره، وأفكاره؛ لتتكشف له وللمتلقي رؤى جديدة ما كانت لتتكشف لو اكتفى الشاعر بنقلها كما هي في الواقع، واستخدم الباحث في بيان ذلك المنهج الوصفي بإجراءاته التحليلية. وقد خلص البحث إلى بيان تعلُّق الشاعر وصلته الوثيقة بالبيئة الطبيعية التي عاش فيها، واستقى منها معجمه الشعري فاحتلت المفردات الطبيعية الصامتة دوراً بنيوياً في النص الشعري، فكانت ذا فاعلية عالية في الوصول بالنص إلى أقصى طاقات التعبير؛ وذلك بتعدد دلالاتها وفقاً للسياق الذي وردت فيه، ورسمه بها صوراً فنية واصفة لكل ما كانت تقع عليه عيناه في حياته أو أحس به، فعقد علاقة مشابهة بين تلك المفردات الطبيعية وبين ما يريد البوح به للمتلقي؛ ليزداد خبرةً عن واقع الشاعر وبيئته الطبيعية، ويثير فيه أيضاً الإحساس بجمال الوصف وروعة الموصوف.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة الصامتة، الشعر، الصحراء، النبات، عمرو بن شأس الأسدي.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية في الحديدة، جامعة الحديدة-اليمن.

Abstract:

The research seeks to study the quiet nature vocabulary in the poetry of Amr Ibn Shaas Al-Asdi with their role in formation the architecture of the poetic rhyme. Beside that, this study highlights the semantic or suggestive role of those vocabulary which they play according to the multi-purpose poetic contexts in which they are contained. Furthermore, it studies poetry's reflection on the personality and psyche of the poet through embodying his emotions, feelings, and thoughts. Consequently, new visions would be revealed whether to the poet or to the reader, that would not have been revealed if the poet was just content to convey them as they are in reality. Therefore, the researcher used in explaining that the descriptive approach with its analytical procedures.

Last but not least, the research concluded with the statement of the poet's interest and his close connection with the natural environment in which he lived, and where he derived his poetic lexicon. This is why the quiet natural vocabulary occupying a structural role in the poetic rhyme. Accordingly, the vocabulary had highly effective in which could make the text reaching to its summit in potential expression. Moreover, it can be found that the poet made equivalent relationship between that natural vocabulary and what he wanted to reveal for his reader by connotations multiplicity of his vocabulary according to the context in which they were mentioned. The poet has portrayed them through artistic figures describing everything that whether his eyes were on through his life or he felt in. For that, the reader's experience about poet's nature and his surrounded environment has increased, as well as the reader's sensation for the charm of description and the magnificence of the described thing, has also evoked.

Key Words: Quiet Nature, Poetry, Desert, Plant, Amr Bin Shaas Al-Asdi.

المقدمة:

الأدب نتاج الفكر والحس الإنساني، وكلّ ما في الحياة من موجودات صامتة وحيّة تعدّ مادةً أدبيّة خصبة تترك آثارها على طبيعة الإنسان عامّةً، وعلى لغة الأديب أو الشاعر خاصّةً في تصويره الواقع وأشياء الطبيعة والتعبير عنها بلغة فنيّة ذات خصائص جمالية يبدعها الشاعر، وينسجها من خيوط رؤاه للواقع والحياة، "فالشعر بخاصّة عبارة عن ظاهرة جمالية، تنتج عن انفعال الإنسان بالبيئة الطبيعية وبالوجود من حوله"⁽¹⁾، ثم إن صياغة الألفاظ، وحسن تأليفها، وجمال المعاني المتشكّلة في البنية النصية تنبع من جمال البيئة، ومواضع الكلا، والنبات الغض، ولا يخيم به في الموضع إلا ريثما يصوح كلاً، ويغيض ماؤه، فإن الطباع الناشئة أيضاً على هذه الحال، وإن لم تكن في الأقاليم المعتدلة، جارية مجرى تلك في سداد خاطر، والتنبه لما يحسن في هيئات الألفاظ المؤلفة والمعاني، وما لا يحسن⁽²⁾، ولذا فإن الطبيعة بشقيها الصامتة والحيّة قد كانت مذكيّةً لشاعرية العرب ولأفكارهم، ومرتّعاً خصبا لخيالاتهم، فهي منبع إلهام الشاعر وإبداعه في تصوير الواقع والحياة بأسلوب شعري جدّابٍ مصبوغٍ بجملة من الأفكار والمشاعر، وبصور فنية موازية لحياته والبيئة والمجتمع.

والمتنبع للشعر العربي يجد أنه لا يكاد يخلو شعر شاعرٍ من وصف مظاهر الطبيعة بتجلياتها المختلفة، ولذا فإن ثمة دراسات نقدية كثيرة تناولت مظاهر الطبيعة بالنقد والتحليل؛ لإظهار الخصوصية التي تفرّد بها كلّ شاعر عن الآخر في التعبير والوصف والتصوير لتلك المظاهر وتجلياتها المختلفة. وعليه فإن أهمية هذا البحث تكمن في تناوله الطبيعة الصامتة في شعر عمرو بن شأس الأسدي؛ لبيّن مقدرة الشاعر في تصويرها، وتوظيف مفرداتها في تشكيل بنية الخطاب الشعري وجمالياته الفنية. وفضلاً عن ذلك فإنني لم أجد فيما اطلعتُ عليه من دراسات وأبحاث علمية عنواناً انفرد بدراسة الطبيعة الصامتة أو حتى الحيّة (المتحركة) في شعر عمرو بن شأس الأسدي على الرغم من وجود دراسات نقدية تناولت شعر الشاعر عامّةً⁽³⁾.

(1) درابسة، محمود محمد. أثر البيئة الطبيعية في الشعر عند النقاد العرب القدماء، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السنة الثامنة، العدد: العاشر، 1415هـ: 139

(2) ينظر: الفرطاجي، أبو الحسن حازم بن محمد. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: الحبيب ابن الخوجة، دن، د.ط، تونس، 1966م: 40، 41

(3) تلك الدراسات هي: بحث بعنوان: "شعر عمرو بن شأس الأسدي- دراسة موضوعية فنية"، أحمد حسين عبدالحليم سعفان، مجلة كلية الآداب، كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد 15، 1994م، ص ص 299-372. ودراسة بعنوان: "عمرو بن شأس الأسدي- دراسة موضوعية فنية" للباحث: جبار شمخي دعيم الظاهري، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، 2004م. ودراسة بعنوان: "التشكيل الجمالي في شعر عمرو بن

أولاً: التعريف بالشاعر :

هو عَمْرُو بْنُ شَاسٍ بْنِ أَبِي بَلِيٍّ عُبَيْدُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ دُودَانَ بْنِ أَسَدِ بْنِ خَزِيمَةَ بْنِ مَدْرَكَةَ بْنِ إِيَّاسِ بْنِ مِزَرِ بْنِ مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ⁽¹⁾. وقد أجمعت الروايات على صحة نسبه ولم تختلف فيه. غير أنه اختلف في اسم جده الثالث (رُوَيْبَةَ): فقد ورد بالهمز: (رُوَيْبَةَ) في معجم الصحابة للبغداد⁽²⁾، وورد (وَبْرَةَ) في معجم الشعراء⁽³⁾، وورد (ذُوَيْبَةَ) في طبقات فحول الشعراء⁽⁴⁾، وورد (ذُوَيْبَةَ) في أنساب الأشراف للبلاذري⁽⁵⁾، وفي الأغاني، وفي تاريخ دمشق⁽⁶⁾. لقبه: الأسدي، ولم يُعرف له لقبٌ آخر غير هذا اللقب الذي اشتهر به.

كنيته: يُكْنَى بِأَبِي عَرَارٍ، ولم تذكر المصادر له كنية أخرى غير هذه الكنية. أما كنية زوجته أم

شَاسِ الأسدي". للباحثة: حنين عز الدين إسحاق كحيل، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين، 2015م. بحث بعنوان: شعر عمرو بن شَاسِ الأسدي، دراسة في الأغراض الشعرية. حازم فاضل محمد العبودي، مجلة دراسات إسلامية معاصرة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة كربلاء، العراق، السنة: 5، العدد: 10، 2014م. ص ص 324-361

(1) ينظر: ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1403هـ: 193. والقرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط1، بيروت، 1412هـ: 263/3. والتبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2000م: 208/1. وابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد. أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415هـ: 227/4. والعسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد. الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415هـ: 112/5. والزركلي: خير الدين بن محمود. الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002م: 79/5، والأسدي، عمرو بن شَاسِ. شعر عمرو بن شَاسِ الأسدي، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، دار القلم، ط2، 1403هـ: 8، والجاسم، أحمد موسى. شعر بني أسد في الجاهلية-دراسة فنية، دار الكنوز الأدبية، ط1، بيروت، لبنان، 1995م: 131

(2) ينظر: البغدادي، أبو الحسين عبد الباقي بن قانع. معجم الصحابة، تحقيق: صلاح بن سالم المصراحي، مكتبة الغرباء الأثرية، ط1، المدينة المنورة، 1418هـ: 201/2

(3) ينظر: المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران. معجم الشعراء، تصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1402هـ: 212

(4) ينظر: الجمحي: محمد بن سلام. طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمد محمود شاكر، دار المدني، د.ط، جدة، د.ت: 190/1

(5) ينظر: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود. أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1417هـ: 182/11

(6) ينظر: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن. تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 1415هـ: 160/40

حسان فلعلها كنية خاصة بها، إذ لم تذكر المصادر أن لعمر بن شأس ابناً اسمه (حسان) من زوجته حية بنت الحارث بن سعد التي ذكرها في شعره بكنيتها أم حسان.

أبوه شأس: كان سيّداً مطاعاً في قومه بني أسد، ومن أهل المشورة والرأي السديد في نظريته للأمور، وقد كان شاعراً، وفارساً قوي الشكيمة، له حروب ووقائع ضد بني عامر⁽¹⁾.
أُمّه: لم يجد الباحث ذكراً لها في المصادر التي ترجمت للشاعر، ولم يشر إليها الشاعر من قريب أو بعيد في شعره.

أبناءؤه: له من الأبناء عراز، وشوكة، وهما أخوة من جهة الأب فقط، فقد كان عراز من أمة سوداء، لم نثر على اسمها في المصادر التي اطلعنا عليها، وقد كان فصيح اللسان، شريفاً، وذا مكانة بين قومه، وكان أبوه يحبه ويؤثره، حتى أنه عُرف بالكوفة بفصاحته ورجاحة عقله وحلمه. وأما شوكة فأُمّها هي حية بنت الحارث بن سعد، وكنيتها: أم حسان، وهي من رهطه، فقد كان عمرو يحبها ويؤثرها، إلا إنها كانت تبغض ابنه عرازاً، لسواد بشرته، فكانت تعيره به، وتؤذي عرازاً، وتشتمه ويشتمها، فجهد عمرو أن يصلح ما بين ابنه وبين امرأته فلم يمكنه ذلك، فطلقها، ثم ندم، ولام نفسه⁽²⁾، وفي ذلك يقول⁽³⁾:

أَرَادَتْ عِرَارًا بِالْهَوَانِ وَمَنْ يَرِدُ
عِرَارًا لَعْمَرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمَ
فَإِنَّ عِرَارًا إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ
فَإِنِّي أَحِبُّ الْجَوْنَ ذَا الْمَكِيبِ الْعَمَمِ

مولده: لم يعرف تاريخ ولادته غير أن التبريزي الذي اكتفى في ترجمته له بقوله: "إنه شاعر مخضرم أدرك الإسلام، وهو شيخ كبير"⁽⁴⁾، وإذا ما عُدنا إلى كلمة شيخ في المعاجم اللغوية فإن ابن سيده في المخصص يشير إلى أن الشيخ هو من "استبان فيه السن فهو شيخ، وقيل: هو شيخ من خمسين إلى آخر عمره، وقيل: هو من الخمسين إلى الثمانين"⁽⁵⁾، وعلى هذا فقد قدر الدكتور يحيى

(1) ينظر: الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، دار القلم، ط2، 1403هـ: 8، 10، وينظر: الجاسم: أحمد موسى. شعر بني أسد في الجاهلية-دراسة فنية، دار الكنوز الأدبية، ط1، بيروت، لبنان، 1995م: 131

(2) ينظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط1، بيروت، 1971م: 418/4، 419، والأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 11، والجاسم: أحمد موسى. شعر بني أسد في الجاهلية: 131

(3) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 57

(4) التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام: 208/1

(5) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1417هـ: 64/1

الجبوري محقق الديوان هذه المرحلة بسبعين عاماً⁽¹⁾، وهذا يعني بأن ابن شأس حين أدرك الإسلام كان عمره قرابة السبعين عاماً، وعلى الرغم من هذا التقريب فإنه لا يمكن الجزم بتحديد تاريخ ميلاده؛ لعدم توافر معلومات كافية بين أيدينا عن تفاصيل حياته نستطيع بها تحديد سنة الميلاد.

نشأته وحياته: نشأ الشاعر عمرو بن شأس في أسرة عريقة حسباً ونسباً ومكانةً؛ وذلك لما كان لأبيه من مكانة، وعلو شأن بين قومه وقبيلته، فهو ينتمي إلى قبيلة أسد، وهي قبيلة عدنانية عظيمة الشأن، ذات بطون متعددة⁽²⁾، وقبيلته دودان بن أسد من أكثر البطون البارزة عدداً ومكانةً⁽³⁾. وقد عاش الشاعر في الجاهلية أكثر سنوات عمره محبباً للخير، ومشاركاً في الحروب مع قومه وقبيلته، فكان "ممن شهَرَ بالبأس والنجدة"⁽⁴⁾، وقد أدرك عصر صدر الإسلام، وهو شيخ كبير، فأسلم مع قومه بني أسد⁽⁵⁾، وحسن إسلامه، وشهد وقعة القادسية⁽⁶⁾، ومع هذا فقد "كان ذا قدرٍ وشرفٍ ومنزلةٍ في قومه"⁽⁷⁾، وقد أشار الدكتور يحيى الجبوري محقق الديوان إلى أنه ليس في المصادر التي تناولت شعره بالاستشهاد أو غير ذلك ما يوضح حياة عمرو بن شأس غير نتفٍ وإشاراتٍ لا تجدي في استجلاء حياته وحياته أسرته⁽⁸⁾.

شاعريته: أشارت المصادر إلى أنه "شاعر مقدّم"⁽⁹⁾، وقد عدّه ابن سلام الجمحي في الطبقة العاشرة من فحول الشعراء، وقال عنه بأنه: "كثير الشعر في الجاهلية والإسلام، أكثر أهل طبقتة شعراً"⁽¹⁰⁾، وهو شاعر مطبوع⁽¹¹⁾، فشعره يُعدُّ من "عيون الشعر العربي... في سمو معانيه، ونصاعة

(1) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 16

(2) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، د.ط، بيروت، 1980م: 52/1

(3) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. جمهرة أنساب العرب: 190، 191

(4) البُرّي، محمد بن أبي بكر بن عبد الله التلمساني، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، نقحها وعلق عليها: د محمد التونجي، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، الرياض، 1403هـ: 211/1

(5) كانوا عشرة رهط وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة تبوك سنة 9هـ.

(6) يُنظر: ابن الجراح، أبو عبد الله محمد بن داود. من اسمه عمرو من الشعراء، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1991م: 17، والمرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران. معجم الشعراء: 212

(7) ينظر: الجمعي، محمد بن سلام. طبقات فحول الشعراء: 196/1

(8) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 9

(9) ابن الجراح، أبو عبد الله محمد بن داود. من اسمه عمرو من الشعراء: 17

(10) الجمعي، محمد بن سلام. طبقات فحول الشعراء: 196/1

(11) ينظر: البُرّي، محمد بن أبي بكر التلمساني، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة: 211/1

لغته، وجمال أسلوبه، ونبل أغراضه، وإيجازه، وبُعده عن اللغو والحشو والفضول⁽¹⁾.

وفاته: لقد أهملت المصادر القديمة ذكر تاريخ وفاته، ومولده؛ لعدم اهتمامها بالشاعر وحياته، والدكتور يحيى الجبوري محقق الديوان يفترض تقديرًا لعمر الشاعر عند وفاته، فيقول: "فإذا قدرنا عمره عند وفاته ثمانين عامًا، فتكون وفاته في حدود 30هـ، أو قبل ذلك بقليل، هذا إن لم يكن قد توفي بعد القادسية بقليل فتكون وفاته عندئذٍ حوالي سنة 20هـ، وهو التقدير الذي ذكره الزركلي"⁽²⁾، ونحن نوافق الزركلي على ما ذهب إليه في تحديد سنة الوفاة بافتراضنا أن ابن شأس قد كان مع وفد بني أسد الذين وفدوا على رسول الله سنة 9هـ، وكان عمره سبعين عامًا، فإنه قد شهد القادسية عام 14هـ، وعمره خمسة وسبعون عامًا، وعلى هذا فإذا كان قد مات وعمره ثمانون عامًا فهذا يعني أنه مات سنة 19هـ، أو 20هـ وهذا يؤكد ما ذهب إليه الزركلي.

ثانيًا: أنواع الطبيعة الصامتة:

يقصد الباحث بالطبيعة الصامتة كل الأشياء التي ليس لها شعور من عناصر هذا الكون، التي أثرت في نفسية الشاعر ومعجمه الشعري، فتفتن في جعل مفرداتها صورًا واصفةً للواقع والمجتمع الذي يعيش فيه، وفيما يأتي توضيح ذلك:

1- الليل والنهار:

الليل والنهار هما عنصران الزّمن الذي هو مجموعة ليالٍ، وأيام، وشهور، وسنوات وما إلى ذلك، ولذا فإن الشعراء قد اتخذوا من الليل صديقًا وأنيبًا لهم، يبثون من خلاله آهاتهم ونجواهم، فكان مصدرًا لشكوى كثير من الشعراء لكن هذا ليس على إطلاقه، حيث إن هناك بعضًا من الشعراء قد هام بالليل، ووجد فيه ضالته، وحقق منه مراده وصبوته، وقلّما نجد شاعرًا مجيدًا يغفل عن ذكر الليل أو ما يتعلق به في شعر، ومن مفردات الليل التي وظّفها الشاعر عمرو بن شأس الأسدي (الليل، الليالي، عشية، المغلس، ظلماء حندس، الصريم: الليل المظلم وهو من الأضداد)، وقد وظّف بعض المفردات العامة التي يكون الليل والنهار جزءًا فيها، ومن تلك المفردات: (اليوم، الزمان، الدهر، الشتاء، الخريف). وهذه المفردات كان لها دورٌ بارزٌ في بنية الخطاب الشعري، وتكوين الصور الفنية التي تكشف عن الحالة الشعورية للشاعر تجاه الواقع والمجتمع، ومن أمثلة ذلك قوله في عاذلته⁽³⁾:

(1) سعفان، أحمد حسين عبدالحليم، شعر عمرو بن شأس الأسدي- دراسة موضوعية فنية، مجلة كلية الآداب، كلية

الآداب، جامعة المنصورة، العدد 15، 1994م: 304، 305

(2) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 16

(3) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 41

وَعَاذِلِي هَبَّتْ بَلِيلٌ تَلُومِي فَلَمَّا غَلَّتْ فِي اللَّوْمِ قُلْتُ لَهَا: مَهْلًا
 ذَرِينِي فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ تَارِكًا بَخِيلًا وَلَا ذَا جَوْدَةٍ مَيِّتًا هَزْلًا
 مَتَى مَا أَصَبْتُ دُنْيَا فَلَسْتُ بِكَائِنٍ عَلَّمَهَا وَلَوْ أَكْثَرْتَ عَاذِلِي قُمْلًا

جاء العنصر الطبيعي (ليلي) ليوضح به الشاعر للمتلقي زمن الحدث الكلامي (اللوم) الذي صدر من العاذلة المندهشة من تصرفاته ذات ليلٍ؛ ولذا فقد اختار الفعل (هَبَّتْ) ولم يقل: (جاءت)، وهذا الاختيار له دلالاته الخاصة، وهي بيان طريقة إقبالها عليه، فقد نهضت مسرعة نحوه غاضبةً وثائرة عليه غير راضية عنه؛ نتيجة ما يقوم به من إنفاق المال. وهنا نلاحظ الثنائية الضدية لدلالة الليل مع ما جاورها من مفردات في السياق الشعري، فالليل هو رمزٌ للراحة والهدوء والسكون، والدخول منه إلى أجواء الأمان والطمأنينة، لكنه تحوّل إلى غير ذلك بتعالقه مع الفعل (هَبَّتْ) الذي قد يكون مصدرًا للخوف والقلق، ورمزًا للحركة السريعة، وللثورة والغضب والغلو في اللوم أيضًا، ومع هذا فقد استطاع الشاعر أن يطفئ ثورة الغضب بكلمة (مهلاً)؛ ليخلق منها ومن فعل الطلب (ذريني) مساحة زمنية مكنته من ذكر الأسباب التي جعلته ينفق ماله، ومحاولة إقناع عاذلته التي لامته على ذلك.

وفي سياق خطابه الشعري عن ليلي، وعن تلك الأيام التي قضاها معها يأتي بالألفاظ الدالة على الليل، وذلك في قوله⁽¹⁾:

بِأَنْعَمِ مِنَّا لَيْلَةً نَزَلْتُ بِنَا تِلْمٌ وَأُخْرَى لَيْلَةً بِالْمُغْلَسِ
 تَمَضَّتْ إِلَيْنَا لَمْ يَرِبْ عَيْنَهَا الْقَدَى لِكَثْرَةِ نِيرَانٍ وَظُلْمَاءٍ حُنْدِسِ

في هذين البيتين تتشكّل بنية الخطاب الشعري من مجموعة العناصر الطبيعية الليل وسواده، وهي: (ليلةً، ليلةً بالمغلس، ظلماء حندس)، حيث جعل الليلة التي نزلت فيها معشوقته (ليلي)، والتقت به من أنعم الليالي لديه، والليلة هي علامة رامزة في السياق الشعري عن اللقاء الجميل، وعن الشعور بالراحة النفسية تجاه المعشوقة؛ لما تحتويه من هدوء وطمأنينة وسكينة. ولم يكتفِ الشاعر بذكر هذه العناصر في التعبير عن جمالية الزمن الماضي الذي قضاها مع معشوقته ليلي، فقد خلق في البيت الثاني أسلوبًا كنائيًا للتعبير عن جمال عينيها: (لَمْ يَرِبْ عَيْنَهَا الْقَدَى)؛ ليوازي به من حيث الدلالة جمالية الوصف لليلي التي قضاها مع معشوقته على الرغم من اتصاف تلك الليالي بكثرة النيران وبشدة الظلمة.

(1) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 25، 26

وفي سياق الذكرى والشوق لليلى يوظف الألفاظ (لات حيناً- أمسى- الدهر) فيقول أيضاً⁽¹⁾:

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لَاتَ حِينَئِذَا وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرْنَئَا
تَذَكَّرَ حُبَّهَا لَا الدَّهْرُ فَإِنْ وَلَا الْحَاجَاتُ مِنْ لَيْلَى قُضِيْنَا

تأتي المفردات الدالة على عناصر الطبيعة بدلالاتها الزمنية (لات حيناً- أمسى- الدهر)؛ لتشكّل رؤية خاصة لدى المتلقي في فهمه للنص الشعري وفق تقنية سردية استدعاها الشاعر في التعبير عن ماضيه الجميل، وذاكراته مع معشوقته (ليلى)؛ وذلك باستخدامه لأسلوب الحوار مع ذاته بصيغة ضمير الغائب (هو)، فالتركيب الزمني (لاتَ حيناً) يتضمن معنى العودة والاسترجاع إلى نقطة زمنية ما، هي مرحلة الفتوة والشباب التي فيها تعرّف الشاعر بليلى، وحبّها، فأخذتْ لَبَّه وعقله فلم يستطع أن ينساها؛ يؤكّد ذلك تكراره للفظ (تذكّر) الذي يوحي بعمق المشاعر والود والمحبة وشدة الشوق. ثم إن توظيفه للتركيب الزمني (أمسى الشيب..لا الدهر فإن) يُعدّ علامة رامية للدخول في مرحلة الشيخوخة، وللعجز والضعف، ولشعوره بانتهاء العلاقة بينه وبين ليلى؛ وذلك لعدم القدرة في مواجهة الواقع الذي وصل إليه فأحبط فلم يستطع الحصول على ما كان ولا يزال يتمناه من ليلى.

وفي سياق الفخر نراه يُعدّل عن الفخر بصيغة (الأنا) إلى الفخر بصيغة (النحن) باستعماله الضمير (نا) الدال على الجماعة، فيستدعي في خطابه الشعري لفظ (الليل)؛ لتحديد زمن استمرار المعركة، وقاتل الأعداء، وامتداده إلى الليل، فيقول⁽²⁾:

أَقِمْنَا لَهُمْ فِيهَا سَنَابِكَ خَيْلَنَا بِضَرْبِ يَفُضُّ الدَّارِعِينَ مُنْكَلِ
إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى مَا تَرَى غَيْرَ مُسْلِمٍ قَتِيلٍ وَمَجْمُوعِ الْيَدَيْنِ مُسْلَسِلِ

يمهّد الشاعر في سياق فخره بقوة قومه، وبسالتهم وشدة بأسهم في القتال، وصبرهم في ميدان المعركة بالفعل (أقمنا)؛ ليصل إلى العنصر الطبيعي (الليل) ليؤكّد للمتلقي بأنه وقومه يتمتعون بالشجاعة والثبات في ساحات الوغى حتى الليل لا يتقهقرون، فهم صامدون، أشداء في ضرب الأعداء وقتلهم والتنكيل بهم، وأسْرهم. ولذا فقد جاء لفظ (الليل) مسبوقاً بحرف الجر (إلى) الدال على انتهاء الغاية؛ ليبين زمن انتهاء المعركة، وليفّت انتباه المتلقي إلى ما يريد أن يعبر عنه من فخرٍ وتعالٍ بقومه وقبيلته.

(1) المصدر نفسه: 59

(2) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 46، 47

ومثل ذلك يأتي بالعنصر الطبيعي الزمني (الليل) ليخلق منه صورة واصفة له ولقومه، إذ يقول⁽¹⁾:

فَأِنَّا لَيْلٌ مُدُّ بُرِّي اللَّيَالِي بُرِينَا مِنْ سَرَاةِ بَنِي أَبِيْنَا
فَلَا وَابِيكَ مَا يَنْفَكُ مِنَّا مِنْ السَّادَاتِ حَظٌّ مَا بَقِينَا
وَنَحْنُ إِذَا يُرِنُ اللَّيْلُ أَمْرًا يُهْمُ النَّاسَ عِصْمَةٌ مَنْ يَلِينَا

فالشاعر هنا يأتي بلفظ (الليل) في سياق الفخر؛ ليخلق بها صورة فنيّة لقومه على مستوى الخطاب الشعري للأبيات الثلاثة، فلهم نسب عريق لا يمكن أن يجمله أحدٌ، ولهم مكانة اجتماعية ثابتة تسمو بهم، فيعرفهم القاصي والداني، ولذا فإنه يشبههم بالليل الذي يغطي كل شيء بانتشار ظلمته في كل مكان، وعليه فإن علاقة قوم الشاعر بني أسد مع الليل في هذه الصورة التشبيهية البليغة (فَأِنَّا لَيْلٌ مُدُّ بُرِّي اللَّيَالِي) تصل إلى حدّ الذروة التي تتمثّل في الاقتراب بين المشبه والمشبه به الذي يكاد يصل إلى حد التطابق على مستوى الفضاء المكاني النصّي⁽²⁾.

وفي موضع آخر يأتي بلفظ (الصريم) الذي يُعدُّ من الأضداد، فيقول⁽³⁾:

وَقُمْنَا وَالرِّكَابُ مُحَيَّسَاتٌ إِلَى قُتُلٍ مَرَّافِقُهُنَّ كُؤُومٌ
كَأَنَّا وَالرِّحَالُ عَلَى صَوَارٍ بِرَمْلٍ جُرَادَ أَسْلَمَهَا الصَّرِيمُ

فالعنصر الزمني (الصريم) هيّمن على تكوين الصورة الشعرية في النص وحركيّتها (كأنا والرحال على صوارٍ برملٍ جُرَادَ)، وكأنه قد قيدها عن الحركة، فضلّت ثابتة في موضعها إمّا إلى الليل المظلم أو إلى الصباح الباكر من خلال تعالقه البنيوي بالفعل (أَسْلَمَ).

وفي قصيدة بدأها بذكر ديار ابنة السعدي يوظّف العنصر الطبيعي للبيئة الصامتة (الليل) توظيفاً ينمّ عن حالته الشعورية، فيقول⁽⁴⁾:

وَإِنِّي لَأَعْطِي غَمَّهَا وَسَمِيمَتَهَا وَأَسْرِي إِذَا مَا اللَّيْلُ ذُو الظُّلْمَةِ أَذْلَهُم

تتعالق مفردات الطبيعة بعناصرها الدالة على الزمن في الشطر الثاني من البيت (أسري- الليل- الظلمة- أذلهم)؛ لتكوّن بنيةً شعرية توحى بحالة شعورية خاصة يعيشها الشاعر، فتفرض عليه القيام ببعض الأشياء التي قد تكون نتيجة للحظة الآنية أو الموقف الآني الذي يصادفه في حياته. يؤكد ذلك

(1) المصدر نفسه: 61

(2) ينظر: كحيل، حنين عز الدين إسحاق. التشكيل الجمالي في شعر عمرو بن شأس الأسدي، رسالة ماجستير، قسم

اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين، 2015م: 64

(3) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 50، 51

(4) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 55

قوله⁽¹⁾:

وَقَفْتُ بِهَا وَلَمْ أَكُنْ قَبْلُ أَرْتَجِي إِذَا الْحَبْلُ مِنْ إِحْدَى حَبَايِي أَنْصَرَمَ

وفي سياق ذكره وشوقه لمحبوبته أم مالك وتمنييه اللحاق بها؛ لأجل أن يكون بقرها، يأتي بلفظ

الليالي، وليلة، والدهر، في قوله⁽²⁾:

ذَكَرْتُكَ بِالْدَّيْرَيْنِ يَوْمًا فَأَشْرَقَتْ بَنَاتُ الْهَوَى حَتَّى بَلَغْنَ التَّرَاقِيَا

أَعُدُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا لَا أَعُدُّ اللَّيَالِي

إِذَا مَا طَوَاكَ الدَّهْرُ يَا أُمَّ مَالِكٍ فَشَأْنُ الْمَنَايَا الْقَاصِيَاتِ وَشَأْنِيَا

وَلَوْ لَا اتَّقَاءُ اللَّهِ وَالْعَهْدُ قَدْ رَأَى مَنِيَّتَهُ مَيَّي أَبُوكَ اللَّيَالِيَا

تتعلق دلالات الزمن الماضي المتمثلة في لفظ (ذكرتك يوما) مع دلالة الزمن الحاضر المتمثل في لفظ (أشرفت) مع عنصر الطبيعة المكاني (الدَّيْرَيْنِ) والعنصر الزمني (الليالي - الدهر) في السياق الشعري؛ ليؤكد الشاعر للمتلقي أهمية العلاقة التي كانت بينه وبين أم مالك، وما أحدثه ذلك المكان من إثارة لمشاعر الحب والهيام تجاه أم مالك -بعد غياب ذكرها في مخيلته دهرًا- فظل يعدُّ الليالي التي مرّت دون أن يراها ليلةً بعد ليلةٍ، وهذا التكرار لعناصر الزمن (الليالي - ليلة - بعد ليلة - الدهر) يفصح عن الحالة النفسية لدى الشاعر، فهو يعيش في حالة صراع مع الزمن بين نسيان محبوبته وذكرها، بين ثنائية الموت والحياة، الرحيل والبقاء، الذكرى والنسيان.

ويستخدم لفظة ليلٍ في سياق النصيح والتوجيه مع استخدامه مفردة الصباح التي توحى بتفاخره بقومه؛ لما لها من دلالة على البروز والوضوح للعيان، إذ يقول⁽³⁾:

إِذَا قُلْتُ: فَأَعْلَمُ مَا تَقُولُ، وَلَا تُكُنْ كَحَاطِبٍ لَيْلٍ يَجْمَعُ الدِّقَّ وَالْجَزْلَا

فَلَوْ طُفْتُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ لَمْ تَجِدْ لِقَؤُمٍ عَلَى قَوْمِي وَلَوْ كَرَّمُوا فَضْلَا

أَعَزَّ وَأَمْضَى فِي الصَّبَاحِ فَوَارِسَا إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ فِي أَعْنَتَيْهَا قُبْلَا

ومن الألفاظ الدالة على النهار، فقد استخدم الشاعر في بناء خطابه الشعري لفظ النهار،

والضحى أيضًا إضافة إلى لفظ الصباح، ومن أمثلة ذلك معي لفظ النهار في قوله⁽⁴⁾:

(1) المصدر نفسه: 55

(2) المصدر نفسه: 84

(3) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 39

(4) المصدر نفسه: 34

تَعْدُو إِذَا تَلَعَ النَّهَارُ كَمَا قَطَعَ الْجَفَاجِفَ خَاضِبٌ هُتْلُ

فقد وظّف الشاعر لفظ النهار في البنية النصية للبيت الشعري؛ ليحدد من هذا العنصر الزمني (إذا تلّع النهار) بداية انطلاقة ناقتة التي تتمتع بالقوة والقدرة على قطع الصحاري بكل حيوية ونشاط كالظليم الذي يتنقل بين المرتفعات بكل خفة ورشاقة، وعليه فقد أدّى العنصر الزمني وظيفة دلالية في السياق الشعري، ومنح الصورة الشعرية صفة الحيوية الشعرية والبروز الجمالي.

وفي سياق حديثه عن طعائن ليث بن بكر، وهو بطنٌ من كنانة يأتي بلفظ الضحى في قوله⁽¹⁾:

ظَعَائِنُ مِنْ لَيْثِ بْنِ بَكْرٍ كَأَنَّهَا دُمَى الْعَيْنِ لَمْ يُخْزِنَ عَمًّا وَلَا بَعْلًا
هَجَانٌ إِذَا اسْتَيْقَظْنَ مِنْ نَوْمَةِ الضُّحَى قَعْدَنَ فَبَاشَرْنَ الْمَسَاوِيكَ وَالْكُحْلَا

إن استدعاء الشاعر للعنصر الزمني (الضحى)، وتعالقه مع التركيب الإضافي (نومة الضحى) فيه دلالة على مدحه لنساء ليث بن بكر، فهن منعمات مترفات لا يَقْمَنَّ إلا في وقت متأخر من النهار، وهنَّ مخدمات لا يشغلنَّ شيء سوى الاهتمام بجمالهنّ.

2- ألفاظ النور الطبيعية:

لم يكن لألفاظ النور الطبيعية حضور بارز في شعر عمرو بن شاس الأسدي، ولم يذكر من تلك الألفاظ إلاّ النجوم، والكواكب، والهلال، ولمعان البرق، والضوء، والنار، ولكنه لم يوظفها في شعره بكثرة، فقد جاءت بالنزر اليسير، غير أنها أبرزت للمتلقي جانباً مهماً من حياة الشاعر والمجتمع. فيستدعي النجوم أحد عناصر البيئة الطبيعية الصامتة التي تظهر ليلاً مضيئة في السماء في سياق مخاطبته الآخر (صاحبه) عن الفراق ووصف الأطلال، إذ يقول⁽²⁾:

وَنَدْمَانِ يَزِيدُ الْكَأْسَ طِيبًا سَقَيْتُ إِذَا تَغَوَّرَتِ النُّجُومُ

فالنجوم عادة لها دلالة الظهور والعلو، لكن الشاعر هنا أتى بها لتتوافق مع المعنى المراد التعبير عنه، فهو يعيش حالة فراق نديمه، ولذا فقد جاء بها في سياق الغياب والاختفاء والغروب وعدم الظهور، وذلك واضحٌ من تعالقها مع الفعل (تغوّرت) التي حددت مع أداة الشرط (إذا) بداية الزمن لشرب الخمر، وعليه فإن السياق يوحي إلى أن الشاعر لا يشرب الخمرة مع ندمائه إلا في الخفاء حين تغيب النجوم، أي في ليلة مظلمة شديدة الظلام، وبهذا فقد أعطى الشاعر العنصر الطبيعي (النجوم) في البيت الشعري دلالةً مغايرة على دلالاته المتعارف عنها؛ ليكشف للمتلقي عن حالته النفسية

(1) المصدر نفسه: 38

(2) الأسدي، عمرو بن شاس. شعر عمرو بن شاس الأسدي: 49

والشعرية التي تعتريه.

ونحو ذلك يأتي بلفظ (النجوم) في سياق الفخر بنفسه وبقومه، وبأنهم أهل كرم وجود وسخاء وقت الشدائد⁽¹⁾:

الْمُطْعِمُونَ إِذَا النُّجُومُ خَوَتْ وَأَحَاطَ بِالْمُتَوَجِّدِ الْمَحَلْ

فالنجوم هنا جاءت متسقة بنيوياً مع الفعل (خوت) حيث حملت دلالة مغايرة لدلالاتها المعجمية؛ لما اقتضاه السياق الشعري إلى ذلك.

ويأتي بلفظ الكوكب في بيت يتيم هو⁽²⁾:

يُقْلِقُنْ رَأْسَ الْكُوكَبِ الْفَخْمِ بَعْدَمَا تَدُورُ رَحَى الْمَلْحَاءِ فِي الْأَمْرِ ذِي الْبَزْلِ

وظّف الشاعر العنصر الطبيعي (الكوكب) توظيفاً يتناسب ودلالته في السياق الشعري، حيث خرج عن دلالاته اللغوية المعجمية، واعطاه معنى الرئيس المقدم، أو الرجل الشريف في قومه.

وفي سياق الفخر الجماعي بقوة قومه، وبفروسياتهم، وبشجاعتهم في مواجهة الأعداء في يوم القادسية، وبما يحدثوه في نفوس العدو، وقتلهم لرستم، يأتي بالعنصر الطبيعي (الهلال)، فيقول⁽³⁾:

وَدَاعِيَةٍ بِفَارِسٍ قَدْ تَرَكْنَا تُبَكِّي كَلَمًا رَأَتْ الْهِلَالَ

استخدم الشاعر لفظ (الهلال) بمعناه المغاير عن معناه المعجمي، وهو "حربة على صفة الهلال التي يُصطاد بها الوحش"⁽⁴⁾، وهذا المعنى أو الدلالة استدعاه السياق الشعري؛ لعقد مشابهة بين الحربة (الرمح) والهلال بجامع الهيئة أو الشكل. ثم إن هذه الأداة الحربية (الهلال) هي عامل تأثير على نفسية الفتاة الفارسية التي تركها جيش بني أسد ببلاد فارس دون أن يمسّوها بشيء، مما يدفعها إلى البكاء حين تراها؛ لكونها إحدى وسائل الحرب التي قُتل بها قومها.

وفي سياق خطابه الشعري عن ليلى، وعن تلك الأيام التي قضاه معها نلحظ لفظ (نيران)، وذلك في قوله⁽⁵⁾:

(1) المصدر نفسه: 36

(2) المصدر نفسه: 76

(3) المصدر نفسه: 70

(4) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط 1 - بيروت، 1987م، 2/1084

(5) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 26

تَمَضَّتْ إِلَيْنَا لَمْ يَرِبْ عَيْنَهَا الْقَدَى لِكَثْرَةِ نِيرَانٍ وَظُلْمَاءِ جُنْدِسِ
يأتي الشاعر بالعنصر الطبيعي (نيران) في تركيب إضافي (كثرة نيران)؛ ليبين للمتلقي مكانة محبوبته في قومها، إذ يحمل هذا التركيب كناية عن الكرم، وكثرة خدمتها للضيوف، وإيقادها النيران في ليالٍ شديدة الظلمة.

ويوظف لفظة الضياء (يضيء) في خلق صورة فنية حيث يقول⁽¹⁾:

تَرَى زَهْرَ الْخَوْدَانِ حَوْلَ رِيَاضِهِ يُضِيءُ كَلَوْنُ الْأَتْحَمِيِّ الْمُورَسِ
إنَّ بنية البيت الشعري تتزاحم بمفردات الطبيعة عامة التي شكّل الشاعر بها صورة جمالية امتدت على مستوى البنية الشعرية الكلية للبيت الشعري، حيث ارتكزت بنية هذه الصورة الفنية على لفظ (يضيء)؛ ليعقد الشاعر بها علاقة تشابه، ومقارنة في شدة الضياء بين زهر الخوّدانِ بلونه الأصفر حَوْلَ رِيَاضِهِ، وبين نوع من البرود اليمينية (الأتحمي) المصبوغة بنبات الورس الأصفر.

3- الطبيعة المائية:

لقد وظّف الشاعر عمرو بن شأس الأسدي الألفاظ الدالة على الماء في شعره، فجاءت بصور متعددة، منها: لفظة الماء بحدّ ذاتها، وماء البئر، واللجّ: وهو البحر، ومن أمثلة ذلك قوله في قصيدة له يخاطب فيها زوجته أم حسان⁽²⁾:

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمَّ حَسَّانَ أَنَّي إِذَا عَبْرَةٌ مَهْمُهُمْ فَتَخَلَّتْ
رَجَعْتُ إِلَى صَدْرِ كَجَرَّةٍ حَنْتَمِ إِذَا قُرِعَتْ صَفْرًا مِنَ الْمَاءِ صَلَّتْ

تتراءى للمتلقي منذ البيت الأول حالة الشاعر النفسية المنكسرة تجاه زوجته أم حسان التي طلقها، وذلك باستخدامه للفظ (عبرة) التي إذا ما كفها تخلّت عنه، وعقده للصورة التشبيهية في البيت الثاني (رجعت إلى صدرٍ كجرّة حنتم)؛ ليزيد من عمق الانكسار النفسي، وما يعانيه من الأسى والحزن والحسرة على فراقها، وفي الوقت نفسه الشوق والحنين لها، ثم تمتد الصورة الفنية في البيت الثاني ليزيد من جمالها حين وصفها بالجملة الشرطية (إذا قُرِعَتْ صفراً من الماء صلّت) التي كان (الماء) فيها واحداً من الدوال البنيوية التي تضيف للنص مزيداً من الوصف، فخلو الجرّة من الماء، وإصدار صوتٍ حين القرع عليها دلالة على الخواء العاطفي الذي أصاب الشاعر، ولذا فقد جاءت لفظة الماء في موضعها الذي تطلّبه السياق الشعري فأدّت مع جاراتها دلالة خاصة انعكست على شخصية الشاعر،

(1) المصدر نفسه: 28

(2) المصدر نفسه: 65

وعلى تصويره لحالته الشعورية المضطربة القلقة نفسياً؛ بسبب فراقه زوجته أم حسان.

ويأتي لفظ (الماء) أيضاً في سياق التحسّر والندم على شبابه وقوّته اللذين ضاعا، وعلى ضياع قوة بني أسد بسبب نوائب الدهر، "فقد كانوا أهل البأس والمنعة وحماية الماء، الذين كانوا يردونه على رغم أنف القوم، كل هذه المعاني تتداعي أمام عيني الشاعر، ويجتر هذه الذكريات، وقد أصابه الكبر، وشاخت عظامه، وذهب سمعه"⁽¹⁾، إذ يقول⁽²⁾:

إِذَا مَا وَرَدْنَا الْمَاءَ كَانَتْ حُمَاتُهُ بُنُو أَسَدٍ يَوْمًا عَلَى رَغَمٍ مِّنْ رَّغَمٍ

لقد وظّف الشاعر العنصر الطبيعي المائي (الماء) في بنية الخطاب الشعري؛ ليعبّر به عن ما كان قومه بني أسد يتمتعون به من شجاعة، فقد كانوا هم حُماة الماء، ويردونه متى شاءوا على رغم أنف القوم. ثم إن لفظة الماء وتعالقها مع الفعل (وردنا) جاءت ملبيةً للغرض المطروق في السياق عامة وهو الفخر بقومه.

ويأتي لفظ الجدول والبئر في سياق حديثه عن منازل أم نوفل، وخلوها من البشر، حيث يقول⁽³⁾:

مَنَازِلُ يُبْكِيْنَ الْفَتَى فَكَأَنَّمَا تَسْحُ بِغَرْبَى نَاضِحٍ فَوْقَ جَدُولٍ
يَسْجَحَانِ مَاءَ الْبُئْرِ عَنْ ظَهْرِ شَارِفٍ بِأُمْرَاسٍ كَثَّانٍ وَقَدِيدٍ مُوصِّلِ
كَمَا سَالَ صُفْوَانٌ بِمَاءٍ سَحَابَةٍ عَلَتْ رَصَافًا وَاسْتَكْرَهَتْ كُلَّ مَخْفِلِ

إن استخدام الشاعر للمفردات الدالة على الطبيعة المائية (تسح- جدول- يسحان- ماء البئر- سال- ماء سحابة) قد شكّلت معمارية النص الشعري في تكوين صورة فنية فيها من الوصف ما يكشف عن الحالة النفسية لدى الشاعر والمتلقي/الرائي؛ بدلالة خلو المنازل من الساكنين، فتثير في نفسية من يراها مشاعر الحزن والألم، فلا يستطيع أن يمسك دموعه تجاه ذلك (منازل يبكين الفتى...الخ)، وتجاه ما أحدثته عوامل الطبيعة المائية من تغيير، وتعرية لمنازل أم نوفل محبوبة الشاعر.

وفي سياق حديثه عن الطعائن من آل ليلى يقول⁽⁴⁾:

وَجِلْتُ ظَعَائِنًا مِّنْ آلِ لَيْلَى بِجَنَبِ عُيُوزَةٍ أَصْلًا سَفِينَا
جَاجَهَهَا تَشْقُ اللَّحْجُ عَنْهَا وَيُبْدِي مَاؤَهَا خَشَبًا دِهْنًا

(1) سعفان، أحمد حسين عبدالحليم، شعر عمرو بن شأس الأسدي- دراسة موضوعية فنية: 336

(2) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 80

(3) المصدر نفسه: 42

(4) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 60

يَوْمُهَا الحُدَاةُ مِيَاهَ نَخْلٍ وَيُؤَيِّدِينَ المَحَاجِرَ والعُيُونَا

لقد استخدم الشاعر من الطبيعة المائية في هذه الأبيات كلمة (السفينة) وهي إحدى وسائل النقل البحرية؛ ليعقد علاقة المشابهة بينها وبين ظعائن محبوبته وسيرها في الصحراء، حيث شبه حال الظعائن بسفينة تشق البحر بجامع السرعة والظهور، ثم يوسع وصف الصورة بتوظيفه لمفردة الماء في الشطر الثاني من البيت الثاني، ويمدّها؛ ليزيد من دلالتها وقوة تأثيرها على نفسية المتلقي إلى نهاية البيت الثالث.

ومن مفردات السحاب والمزن استدعى الشاعر البعض منها، كلفظة سحابة، ونافجة، والمطر، والسبط المديم، وسجوم، والندى، والثلج، وأعطى لكلٍ منها دلالتها الخاصة وفقاً للسياق الذي وردت فيه، فضلاً عما أحدثته من تأثير في نفسية الشاعر والمتلقي معاً، ومن أمثلة ذلك توظيفه للفظه الثلج في سياق حديثه عن ديار ابنة السّعدي محبوبته هند، إذ يقول⁽¹⁾:

وَإِنِّي لَأَعْطِي غَمَّهَا وَسَمِيمِهَا وَأُسْرِي إِذَا مَا اللَّيْلُ ذُو الظُّلَمَةِ اذْهَبَ
إِذَا التَّلُجُ أَضْحَى فِي الدِّيَارِ كَأَنَّهُ مَنَائِرُ مَلَحَ فِي السُّهُولِ وَفِي الْأَكْمِ

لقد جاءت المفردة الدالة على الطبيعة المائية (الثلج) جزءاً أساسياً في بنية الجملة الشرطية (إِذَا التَّلُجُ أَضْحَى...) التي هي في الأصل متصلة ومتعالقّة دلالةً ومعنى مع الجملة الاسمية (إني لأعطي...)، إذ يتخذ من مفردة الثلج مُتَكَنّاً أساسياً يبني عليه المعنى المراد الحديث عنه، وهو وصفه لديار ابنة السعدي هند، وما أصابها من جدبٍ تزامن مع شدة البرد القارس، ثم مفاخرته بذاته، ومباهاته بشربه الخمر مع رفقائه، ثم مفاخرته بجوده، وكثرة عطاياه، وخروجه إلى تلك الديار في ليلة ظلماء، والثلج مغطياً سهولها ومرتفعاتها، وكأنه منائر ملح، وهذه الصورة للثلج توحى للمتلقي بشعور خاص، وهو الشعور بقسوة الطبيعة تجاه الإنسان التي تمثلت في شدة البرد القارس التي لا يستطيع الإنسان تحملها ومقاومتها خاصةً إن كان يشعر بالجوع، وعدم امتلاكه أدوات التدفئة.

وأما المفردات الدالة على مواضع الماء وعيونها، فقد أكثر الشاعر استخدامها في بنية خطابة الشعري؛ ليصف بها مشهداً ما، أو يستشهد على حدثٍ وقع فيها، أو غير ذلك، ومن تلك المفردات: (أكناف، ونيق: عين من ماء، ومنهل: موضع الماء، وغسان: اسم ماء واسم قبيلة، ولغلع: منزل وموضع ماء أيضاً، وفرتاج: موضع، وقيل: ماء لبني أسد، وجراد: موضع ذو كثبان، وماء في ديار بني تميم، والثعلبية: ماء لبني أسد).

4- الريح:

(1) المصدر نفسه: 56

يستدعي الشاعر ابن شأس الأسدي مفردة الرياح حين يقف على أطلال أم نوفل، ويطلب من رفيقيه الوقوف ليتعرفا معه على منازل أم نوفل، التي غيّرت ملامحها شدة الرياح، فيقول⁽¹⁾:

قَفَا نَعْرِفَا بَيْنَ الرُّحَى قَفَرًا قَرِ
مَنَازِلَ قَدْ أَقْوَيْنَ مِنْ أُمِّ نَوْفَلٍ
تَهَادَتْ بِهَا هُوجُ الرِّيحِ كَأَنَّمَا
أَجَلَنَ الَّذِي اسْتُوْدِعْنَ بِمُنْخَلٍ

لقد شكّلت مفردة (الرياح) بإضافتها إلى كلمة (هوج) منها دلاليًا في السياق الشعري اتكأ عليه الشاعر في وصفه منازل أم نوفل، ومحاولة التعرف عليها، وقد تعاورتها الرياح فغيّرت معالمها. فهوج الرياح فيه دلالة على الشدة المؤدية إلى اقتلاع المنازل، ودفعها للأثار، إذ يصبح من الصعوبة على الرائي التعرف عليها، وفضلاً عن هذا فإن مفردة (هوج الرياح) تُعدُّ مثبِّراً نفسيّاً هيّج أشجان الشاعر وشوقه لمحبوبته.

ونحو ذلك يذكر (رياح الصيف) في بداية استهلاله لقصيدة أخرى، فيقول⁽²⁾:

أَلَمْ تَرْبَعْ فَتُخَبِّرْكَ الرُّسُومُ
عَلَى فِرْتَاكِجٍ وَالطَّلَلُ الْقَدِيمُ
تَحَمَّلْ أَهْلَهَا وَجَرَتْ عَلَيْهَا
رِيَّاحُ الصَّيْفِ وَالسَّبْطُ الْمُدِيمُ

فمجيء الرياح في هذا البيت بما تحمله من وصف الشدة والسرعة، والمصاحبة للأمطار الغزيرة أعطت للمكان دلالة التغيير والتحول؛ نتيجة رحيل أهلها القسري (تحمل) بسبب الحرب، فضلاً عن تصوير الشاعر للحالة الشعورية التي اعتبرت نفسيته عند رؤيته لتلك الأطلال التي كان يسكنها قومه. ولحالة الدمار الذي خلفته الحروب الطويلة التي خاضتها قبيلة بني أسد.

ويذكر الريح الشديدة البرودة (حرجف) في سياق الفخر بذاته، وشربه للخمر مع ندمائه، فهو يرى ذاته الكريمة في ذلك، إذ يقول⁽³⁾:

وَإِنِّي لِأَعْطِي غَنَمًا وَسَمِيئَهَا
وَأَسْرِي إِذَا مَا اللَّيْلُ ذُو الظُّلْمَةِ ادْلَهَمَ
إِذَا الثَّلْجُ أَضْحَى فِي الدِّيَارِ كَأَنَّهُ
مَنَازِلُ مِلْحٍ فِي السُّهُولِ وَفِي الْأَكْمِ
حِذَاراً عَلَى مَا كَانَ قَدَمَ وَالْيَدِي
إِذَا رَوْحَهُمْ حَرْجَفٌ تَطْرُدُ الصَّرَمَ

حيث استخدم (حرجف) وهي الريح الشديدة الباردة التي تجعل الرعاة من شدة برودتها يعودون بالإبل إلى أعطانها؛ ليفصح للمتلقي عن مكانته بين قومه، وسيره على نهج أبيه في العطاء والجود.

(1) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 42

(2) المصدر نفسه: 49

(3) المصدر نفسه: 56

وفي سياق الفخر بقومه يذكر ريح الصَّبا شديدة البرودة أيضاً؛ ليبين للمتلقي أن قومه أهل كرم وجود، كثيرو الإطعام للمحتاجين، وخاصة في وقت الشدَّة؛ لأنَّ ريح الصبا "لا تهب إلا في جذب"⁽¹⁾، إذ يقول⁽²⁾:

مَصَالِيْتُ أَيَسَّارُ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا نَعْفُ وَنُغْنِي عَنْ عَشِيرَتِنَا الثَّقَلَا

لقد ربط الشاعر المعنى الذي يريد إيصاله للمتلقي وهو الكرم بالصبا؛ لما بينهما من علاقة وطيدة، فقد كانت العرب تُطعم عندما تهب الرياح الباردة الشديدة، ويتفاخرون بذلك، يقول أبو إسحق القيرواني: "سئل أعرابي عن قومه، فقال: يقتلون الفقر عن شدة القرّ، وأرواح الشتاء، وهبوب الجربياء بأسنمة الجذور، ومتراعات القدور، تهشّ وجوههم عند طلب المعروف، وتعبسُ عند لمعان السيوف"⁽³⁾.

ويذكر الشاعر رياح الشمال في سياق حديثه عن الظعائن إذ يقول⁽⁴⁾:

وَأَلْوَتْ بِرَيْعَانِ الْكَنْيَفِ وَزَعَزَعَتْ رُؤُوسَ الْعِضَاهِ مِنْ نَوَافِحِ شَمَالٍ

5- الطبيعة النباتية:

تعد مفردات الطبيعة النباتية بضروبها وألوانها إحدى اللبّات اللغوية التي شكّلت معمارية النص الشعري لدى الشاعر عمرو بن شأس الأسدي، وأدّت دورها الفني والجمالي في السياق الشعري فاكتسب النص دلالات وإحياءات متنوعة، تتكشف عنها رؤية الشاعر، ونظراته للواقع وللمجتمع من حوله، ومن تلك المفردات: (المرد، مرمس، عضرس، لون سندس، رياض، الروض، زهر الحوذان، المورس، الأرجوان، الدّوم، الإثل، الكحل، المساويك، قزح، حب فلفل، سراء، الحمض، العضاة، حبة خردل، عود حرمل، حنظل، المسك، العشب، الزهر، الربيع، أرمات، العبير، الأدم، رياض، بذى نخل، منخل. مجدل: أصول الحطب العظام...). وهذا التنوع للمفردات في البنى الشعرية يعكس مدى ارتباط الشاعر بالطبيعة عامة، والنباتية خاصة، والشغف الكبير بمحتوياتها الخلابة التي عبّر بها عن مراده، وغدّث خياله بأصنافٍ شتى من الوهج الفني، فكانت مصدر إلهام متجدد بتجدد مظاهرها. ومن النصوص

(1) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تحقيق: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، د.ط، د.ت، 127/2

(2) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 41

(3) القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحُصَري، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، د.ط، بيروت، د.ت، 916/4

(4) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 46

الشعرية التي وظّف الشاعر ابن شّاس الأسدي فيها المفردات النباتية ما جاء خلال حواريته مع خليله، يطلب منه بصيغة الأمر (انظر) أن يتأمّل باحثًا عن أثرٍ للظّلعائن؛ علّه يجد أثرًا لها، فيستدعي لفظة (الدّوم- الأثل): ليجعل منها صورةً رامية للظّلعائن، وذلك في قوله⁽¹⁾:

فَإَنْظُرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى ظُعْنًا كَالدُّومِ أَوْ أَشْبَاهِهَا الْأَثْلُ

فقد جاءت مفردتا (الدوم، والأثل) استكمالاً لمعمارية البيت الشعري من جهة البنية اللغوية، أما من جهة الدلالة فإنه يريد أن يجعل منها صورةً واصفةً لحال الظّعن الراحلة، وبُعدها عن الديار في صحراء واسعة حتى أنه يُخيّل للرائي بأنهنّ كأشجار الدوم أو الأثل، وفضلاً عن ذلك ففي توظيفه لشجرة الدوم بما تتمتع به من صفات الثبات والطول، وما تحمله من ثمار حمراء دلالةً على ما تمتاز به الظّلعائن الراحلات، وهن في الهوادج المزينة باللون الأحمر من عزة وكبرياء وشموخ، وجمالٍ أسيرٍ للقلوب، ومثله في موضع آخر -أيضاً- يقول⁽²⁾:

وَمِنْ ظُعْنٍ كَالدُّومِ أَشْرَفَ فَوْقَهَا ظِبَاءُ السُّلَيْيَ وَكِتَاتٍ عَلَى الْخَمَلِ

ويخلق الشاعر ابن شّاس الأسدي صورةً فنيّة في سياق وصفه للنوق، ومشاهدته لهنّ، وهنّ يلتقطن بأفواههن ما يقابلهنّ في الصحراء من نبات، وذلك في قوله⁽³⁾:

لَقَطْنٌ مِنَ الصَّحْرَاءِ وَالْقَاعِ قُرْزُخًا لَهُ قُبْصٌ كَأَنَّهُ حَبٌّ فُلْفُلٍ

فالعنصر النباتي (قرزح) وهو شجيرة صغيرة جعدة لها حبّ أسود، ورؤية الشاعر له جعله يستدعي من الطبيعة النباتية ذاتها عنصراً آخرًا، وهو (حب الفلفل)؛ ليعقد به علاقة مشابهة بينه وبين حب القرزح، وهو بهذا التعبير (لقطن من الصحراء والقاع قرزحًا) يريد أن يبيّن للمتلقى الصعوبات التي يواجهها في تجاوزه الصحراء هو وراحلته لبلوغ الهدف المراد الوصول إليه، وبهذا فقد أدّت مفردات الطبيعة النباتية دورًا في بنية النص الشعري، وفي إبراز جمالية الصورة ودلالاتها الفنيّة التي أثارت انتباه الذات الشاعرة والمتلقى معًا، ما يؤكد للمتلقى أثر البيئة الطبيعية في معجم الشاعر اللغوي.

6- الطبيعة الصحراوية:

لقد كان لمفردات الطبيعة الصحراوية في شعر عمرو بن شّاس الأسدي نصيبٌ لا بأس به من حيث تشكيلها لبنية الخطاب الشعري، فقد أدّت دورًا بارزًا في ذلك، وشكّلت لوحات فنيّة، أبرزت رؤية

(1) الأسدي، عمرو بن شّاس. شعر عمرو بن شّاس الأسدي: 34

(2) المصدر نفسه: 75

(3) المصدر نفسه: 44

الشاعر للطبيعة والحياة والواقع، وقدرته على الخلق والإبداع، وذلك على النحو الآتي:

الصحراء والفلاة: من الألفاظ التي وظّفها الشاعر في معمارية خطابه الشعري، وخلق بها صوراً فنيّة واصفة للصحراء في سياق حديثه عن رواحل قومه، والمفاخرة بقوتها، وقدرتها على تحمّل الصعاب في صحراء واسعة، ما يجعله "يستعظم ولوجها لمخاطرها الجسيمة التي تزيدها حلكة الليل، وانخراق الرياح رهبةً، وحرارة الصيف عامل آخر يزيد من صعوبة العيش في الصحراء، ومسافات أخرى أُضيفت إلى مسافاتها الشاسعة"⁽¹⁾، ومن تلك المفردات الوصفية للصحراء التي استدعاها الشاعر لبناء خطابه الشعري، والتعبير عن الواقع، والمجتمع، والحالة الشعورية التي تنتابه تجاه أي موقف يعتره، مفردة خرقٍ، والسخاخ، وقيعان، وجُدد. ومن الأمثلة على ذلك قوله⁽²⁾:

وَحَرْقٍ كَأَهْدَامِ الْعَبَاءِ قَطَعْتُهُ بَعِيدِ النَّيَاطِ بَيْنَ قُفٍّ وَأَرْمُلٍ

الْحَرْقُ "الأرض البعيدة، مُستوية كانت أو غير مُستوية. يُقَالُ: قَطَعْنَا إِلَيْكُمْ أَرْضًا خَرْقًا وَخَرَوْقًا. وَالْحَرْقُ: الْفَلَاةُ الْوَاسِعَةُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِانْخِرَاقِ الرِّيحِ فِيهَا"⁽³⁾، ومن هذا المعنى اللغوي فقد استدعى الشاعر في سياق الفخر بذاته مفردة (خرق)؛ لما تثيره في ذهن المتلقي من دلالات المشقة والبعد، والخوف والمعاناة التي واجهها أثناء رحلته في تلك الصحراء الواسعة التي كأنها نيطت بمفازة أخرى لا تكاد تنقطع، وتجاوزه لها، هذا فضلاً عما أثارته الصورة التشبيهية (كَأَهْدَامِ الْعَبَاءِ) من دلالات نفسية خاصة أفصحت عما يريد الشاعر التعبير عنه، وإيصاله للمتلقي بأسلوب فني تصويري.

وفي سياق مفاخرته بقومه، وشدّتهم في الحروب، ووصفه للخيل وشدّة سرعتها، وكأنّها على عجلةٍ من أمرها، يستدعي لفظ (السِّخَاخ) في قوله⁽⁴⁾:

نَفَيْنَا سُلَيْمًا عَنْ تِهَامَةٍ بَالِقْنَا وَبِالْجُرْدِ يَمْعُلُنَ السِّخَاخُ بِنَا مَعْلًا

فالسِّخَاخ "الأرض الحُرّة اللينة"⁽⁵⁾، وقد استدعاها الشاعر؛ ليثبت للمتلقي قوة الخيل، وقدرتها على اجتياز الفلاة أو الأرض اللينة الرطبة بكل بساطة، وبسرعة شديدة، حيث إنه في العادة لا يمكن تجاوز مثل هذه الفلاة إلا بصعوبة؛ نتيجةً لليونة تربتها ورطوبتها.

(1) العبيدي، حازم فاضل محمد، شعر عمرو بن شأس الأسدي، دراسة في الأغراض الشعرية، مجلة دراسات إسلامية معاصرة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة كربلاء، العراق، السنة: 5، العدد: 10، 2014م: 340

(2) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 43

(3) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ، مادة: (خ ر ق) 74/10

(4) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 43

(5) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، مادة: (س خ خ) 24/3

أما الجبال والإكام والصخور: فقد اكتفى ابن شأس الأسدي بذكر لفظ الجبل بذاته، والسفح، وأحياناً يأتي بالصفة أو اسم المكان كلفظ ذي زلق أشم، وصفوان، والجلاميد، وعرمس، والرحى، وسلى، ورعان، وروض قراقر، والجفاجف: الأرض المرتفعة، والأرضين- رابية، والقف، وهو ما ارتفع من الأرض... فنجدّه يستدعي جبل سلى -أحد جبلي طيء- في خطابه الفخري بقومه فيقول⁽¹⁾:

وَجَمْعًا مِثْلَ سَلَى مُكْفًىرًا نَشِيْهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا فُرُومًا

إن إعجاب الشاعر بعلو جبل سلى وضخامته، هو ما جعله يستدعيه في بنيته الشعرية؛ ليعقد به علاقة مشابهة بينه وبين قومه من يتفاخر بمكانتهم الاجتماعية، وعلو شأنهم؛ وليجعل من الجبل رمزاً لسموهم، وحلمهم، ورزانتهم في شتى الأمور والمواقف، ولما لهم من رهبة في قلوب الأعداء والخصوم.

أما الوديان والسهول: فقد ذكر لفظ وادٍ بذاته، في سياق التحذير من الحيّة الرقشاء التي تعيش في المناطق الصحراوية النائية غير المؤهلة بالسكان، الخالية من الكأ والعشب، حيث يقول⁽²⁾:

لَا يَنْبِتُ الْعَشْبُ فِي وَادٍ تَكُونُ بِهِ وَلَا يُجَاوِرُهَا جِنَّ وَلَا بَشَرٌ

فالوادي هنا دلالة عن الصحراء الخالية من السكان، ولذا فإنه يثير في نفس المتلقي نوعاً من الخوف والرغبة؛ لما فيه من أفاعي وآفاتٍ قد تؤدّي بالشخص إلى الهلاك والموت، وهو في هذا البيت يشير إلى جانب من قساوة الطبيعة الصحراوية تجاه الإنسان.

ويأتي لفظ السهول للدلالة على الاحتواء في قوله⁽³⁾:

إِذَا الثَّلْجُ أَضْحَى فِي الدِّيَارِ كَأَنَّهُ مَنَائِرُ مِلْحٍ فِي السُّهُولِ وَفِي الْأَكْمِ

لقد وظّف الشاعر لفظة (السهول)، ومعها لفظة (الأكم)؛ ليبيّن للمتلقي مكان نزول الثلج، وطغيانه وانتشاره على مساحة شاسعة من الأرض، شملت السهول والمرتفعات التي احتوته حتى ظهر فيها، وكأنه ملح أبيض متناثر.

ولم يكتفِ الشاعر بذكر لفظ الوادي، فقد لُوْحِظَ أنه غالباً ما كان يذكر في سياقاته الشعرية المتنوعة اسم الوادي المتعارف عليه آنذاك، كوادي رمم، ووادي الجريب، وادي رواكس، ووادي الجو،

(1) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 53

(2) المصدر نفسه: 66

(3) المصدر نفسه: 56

ووادي قراقر، وغيرها؛ ليُفصح للمتلقى موقفه من تلك الأودية، وما لها من دلالة في السياق توحى بحالته الشعورية تجاه الآخر، كقوله⁽¹⁾:

فقلتُ لهم: إِنَّ الْجَرِيْبَ وَرَاكِسًا بِهِ إِبْلِي تَزْعَى الْمَرَارَ رَتَاغُ

فالجريْبُ: وادٍ عظيم يصبُّ في بطن الرمة من أرض نجد. وراكس: موضعٌ في ديار بني سعد بن ثعلبه من بني أسد⁽²⁾.

أما المفردات الدالة على الرمال والحصى، فقد ذكر الشاعر منها في شعره (الرمال، الهيال، مهيل، النقا، الكثيب، الحصى)، وقد كان لهذه المفردات دورها الفني والدلالي في بنية النص الشعري، وفي خلق صورٍ شعرية أوحَتْ للمتلقى بعمق العلاقة بين الشاعر وبيئته الطبيعية عامة، والصحراوية خاصة. ومن أمثلة ذلك قوله⁽³⁾:

قَتَلْنَا رُسْتُمًا وَبَنِيْهِ قَسْرًا تَثْيِيرُ الْخَيْلِ فَوْقَهُمُ الْهَيْالَا

إن مجيء الشاعر بلفظ (الهيالا)، وهو التراب، إيحاءً للمتلقى بدلالات متعددة، منها: شدة المعركة وضراوتها، وأيضاً سرعة الحركة للخيول، ثم إن إثارة التراب على جثث القادة من الأعداء خاصةً فيه دلالة على التحقير والاستهجان بهم من قبل الشاعر الذي يريد في الوقت ذاته أن يشير إلى دلالة القوة والثبات والصمود في ساحة المعركة التي يتمتع بها قومه.

7- أماكن السكن والإقامة:

لقد اعتنى الشاعر ابن شأس الأسدي بتوظيفه للأماكن والمفردات الدالة على السكن والإقامة في بنية خطابه الشعري، وخاصةً في مقدماته الطللية، فجاءت مفردة الديار، والخدور، والحي، والقصر، وأبواب الطراف، ومُعْرَس، والثغور، والرسوم والمنازل والأطلال، والديمن، والسفع، والأثافي، والرماد وغير ذلك من المفردات التي أضفى عليها شيئاً من مشاعره وأحاسيسه، فيقف أمام تلك الأماكن التي خلث من أهلها؛ بسبب ظروف الحرب، وشظف العيش، ويمعن النظر فيها، فيجد في تلك المنازل والديار آثاراً ورسوماً باقية قد لعبت بها الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة، فتبهج في نفسه ذكريات الأحبة فلا يستطيع أن يتمالك نفسه أو يحبس دموعه التي تجري بغزارة فوق وجنتيه كالماء فوق صخرٍ أملس؛

(1) المصدر نفسه: 68

(2) ينظر: الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 68

(3) المصدر نفسه: 70

شوقًا لتلك الأحبة، ولتلك الأيام الجميلة التي قضاها مع ربه وخلانه، وهذا واضح في قوله⁽¹⁾:

مَنَازِلُ يُبْكِيَنَّ الْفَتَى فَكَأَنَّمَا تَسُحُّ بَغْرَبَى نَاضِحٍ فَوْقَ جَدُولِ
يَسُحَّانِ مَاءَ الْبُئْرِ عَنْ ظَهْرِ شَارِفٍ بِأُمْرَاسٍ كَثَّانٍ وَقَدِ مَوْصَلِ
كَمَا سَالَ صُفُونٌ بِمَاءٍ سَحَابَةٍ عَلَتْ رَصَفًا وَاسْتَكْرَهَتْ كُلَّ مَحْفِلِ

ولم يكتفِ بذكره لأماكن السكن الخاصة بالإنسان، بل وجدناه يأتي بكلمات دالة على أماكن السكن الخاصة بعالم الطيور والحيوانات ككلمة أفاحيصه للدلالة على مجاثم القطا أو سكنها، وذلك في سياق وصفه للرحلة، وناقته الشديدة القادرة على تجاوز الفيافي والقفار الواسعة المتشعبة الأطراف، حيث يقول⁽²⁾:

وَحَزَقٍ كَأَهْدَامِ الْعَبَاءِ قَطَعْتُهُ بَعِيدِ النَّيَاطِ بَيْنَ قُفٍّ وَأَرْمَلِ
بِنَاجِيَةٍ وَجَنَاءٍ تَسْتَلِبُ الْقَطَا أَفَاحِصُهُ زَجْرِي إِذَا التَّفَتَّتْ حَلِي
ومثلها كلمة: الكنيف التي هي حظيرة من الشجر، تكون خاصة بالإبل لتجد فيها الراحة والدفع⁽³⁾.

8- أدوات يستخدمها الإنسان في حياته:

تعدد الأشياء والأدوات الطبيعية التي يستعملها الإنسان في حياته اليومية، فقد اعتنى العرب الموسرون منذ القدم بأدوات الأكل والشرب واللباس، وأدوات الصيد والحرب، فأكلوا في أواني الفضة والذهب، ولبسوا أجود الملابس المصنوعة من الكتان والقطن والديباج والخز الموشاة بالذهب، البيض منها والمصبوغة والملونة، والمزينة بضروب الوشي⁽⁴⁾؛ ونظرًا لهذا، فقد ذكر ذلك الشعراء في نصوصهم الشعرية التي تُعدُّ "وثيقة تاريخية وأدبية وحضارية ولغوية"⁽⁵⁾، وتباهوا بذلك من خلال الوصف الفني الدقيق، ولما لذلك -أيضًا- من دلالة معنوية في نفوسهم. ولم يخلُ شعر عمرو بن شأس الأسدي من تلك المفردات أو الألفاظ التي هي مسميات لأشياء يستخدمها الإنسان في حياته اليومية، في مأكله وملبسه، وفي خروجه للصيد والحرب، سواء أكان استدعاؤها عن قصد أم جاء عرضًا تطلبه

(1) المصدر نفسه: 42.

(2) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 43.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 46.

(4) الجبوري، يحيى، الملابس العربية في الشعر الجاهلي، دار الغرب الإسلامي، دط، بيروت-لبنان، 1989م: 22.

(5) المصدر نفسه: 22.

السياق الشعري. ومن تلك المفردات الدالة على المأكّل والمشرب: (الإبريق، الزجاج، الكأس، الإناء، كؤوس، القدح، الجفان، الجرّة، المتاع، السمن، الخمر، والملامة، والبرطيل)، إذ نلاحظ ذكر ذلك في وصفه لمجلسه الخمري حيث يقول⁽¹⁾:

وَنَدْمَانٍ يَزِيدُ الْكَأْسَ طِيبًا	سَقَيْتُ إِذَا تَغَوَّرَتِ النُّجُومُ
رَفَعْتُ بِرَأْسِهِ فَكَشَفْتُ عَنْهُ	بِمُعْرِقَةٍ مَلَامَةٍ مَنْ يَلُومُ
وَلَمَّا أَنْ تَنَبَّهَ قَامَ خِرْقُ	مِنَ الْفِتْيَانِ مُخْتَلِقُ هُضُومُ
إِلَى وَجْنَاءِ نَاجِيَةٍ فَكَاسَتْ	وَهَى الْعُرْقُوبِ مِنْهَا وَالصَّمِيمُ
فَأَشْبَعَ شَرْبُهُ وَجَرَى عَلَيْهِمُ	بِإِبْرِيقَيْنِ كَأْسًا هُمَا رَذُومُ
تَرَاهَا فِي الْإِنَاءِ لَهَا حُمِيًّا	كُمِيًّا مِثْلَ مَا فَقَعَ الْأَدِيمُ

لقد كان لمفردات (الكأس - ومعرفة - ملامة - إبريقين - كأسهما - رذوم - الإناء - الأديم)، دورٌ في تشكيل البنية الشعرية، وإضفاء دلالات خاصة في نفس المتلقي تجاه الشاعر ومَن ينادمهم في مجلسه الخمري، إذ نستشف في هذه المفردات اللون والشكل والحركة للخمرة وشاربها، وما تتمتع به من جودة، ومن شدة إسكارٍ، فهي (معرفة)، ولها (حميّا كميّا). ثم أنه لا يكون الكأس بما يحتويه من خمرة طيباً لدى الشاعر إلا إذا كان مع النديم الذي يمنحه الاستمرار الوجودي، وبذلك فإننا أمام لوحة فنية مكتملة عكست الواقع والزمان والمكان، وأفصحَت عن الحالة الشعورية التي يحسّ بها الشاعر مع ندمائه، ومكانته الاجتماعية بينهم.

ومن المفردات الدالة على اللباس والزينة، نلاحظ استخدامه للألفاظ: (الطوق، والصوف، والنعل، والأنساع، والمرأة، والثياب، والقטיפفة، والبرود بأضره: كالأنحي والعصب. والسربال، والوشاح، والديباج، والخز، والحريز، والسحل، والمروط، وعرق السام: الذهب، والعصم: القلائد، والجلود، والأدم: الجلد المدبوغ، والوضين) وقد كان لها الأثر الواضح في تشكيل الخطاب الشعري لدى الشاعر، وإعطاء النص المزيد من القيم الدلالية والإيحائية التي تعكس الحالة الشعورية لدى الشاعر، وعلاقته مع الآخر.

ومن الأدوات التي يستخدمها في حياته وتعامله مع الحيوانات الأليفة التي يُستأنسُ بها: (السنبك، والحبل، والبريم: الحبل المفتول يكون فيه لونان، والقَدّ: سير يقد من جلد غير مدبوغ، والجلجل، والشكيم والشكائم، والجران)، وبهذه الألفاظ المصنوعة من الطبيعة الصامته التي يستخدمها

(1) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي: 49، 50

الإنسان للحيوان كالشكيم الخاص برباط الخيل ولجامه، وكالجلجل وهو جرسٌ يعلق على أعناق الدواب، والحبل لربط الحيوان- تتعاضد مفردات الطبيعة الصامته والحيّة في بيان الحالة الشعورية للشاعر التي أحياناً تسيطر عليها عاطفة الحنين والشوق لمحبوبته التي رحلت عن ديارها الأصلية بني أسد؛ بسبب ظروف الحرب، وأصبحت في مكان بعيد يصعب على الشاعر اللقاء بها.

أما أدوات الحرب، فقد وظّف الشاعر ابن شّأس في شعره الألفاظ التي يصور بها شجاعته، وشجاعة قومه وبسالهم بما يملكون من أسلحة لها دور بالغ في تحقيق الانتصارات في الحروب والمنازعات، ومن تلك الألفاظ خاصة ما يتعلق بالسلح، وأسمائه، وصفاته، وأنواعه، واستعمالاته: لفظ السلاح ذاته، والكمي والدرع، والقنا، والرمح، والسمر الشداد، والقسي، والسنان، والسيوف، والسيف، ورقيق الشفرتين، ورقيق الحد، والمهند، والنصل، والغمد، والنجاد، حيث استقى الشاعر هذه الألفاظ من واقعه البيئي الذي يعيش فيه، وواقعه الحربي والنفسي معاً، ففي معرض حديثه عن الراحلة ناقته، نراه يستدعي مفردة السيف؛ ليرز بها صفات الناقة، يقول⁽¹⁾:

فَقَاطَعُ بِلَادِهِمْ يَنَاجِيهِ كَالسَّيْفِ زَايِلٌ غَمْدُهُ النَّصْلُ

وظّف الشاعر مفردات (السيف- الغمد- النصل) في البنية الشعرية في معرض الفخر بذاته؛ ليشكّل بها صورة فنية رامية للناقة لما تتصف به من قوة وسرعة في قطعها البلاد والفيافي كالسيف سريع الإمضاء حين يُسَلّ من غمده. وقد جاء الشاعر بهذه المفردات ليستكمل بها معمارية البيت، ويصل بها إلى قافيته أولاً، وليُكمل للمتلقي المعنى المراد التعبير عنه ثانياً، ولذا فالشاعر أراد أن تكون المفردة الحربية (السيف) معادلاً موضوعياً للتحدي والصمود الذي تتمتع به الناقة؛ لما للسيف في نفس الشاعر خاصة والعربي عامة من أهمية ومكانة عالية.

ونجده في معرض الفخر الجماعي يستدعي لفظ الرمح، والسيوف، ورقيق الشفرتين والمهند من خلال سرده الوصفي للمعركة التي خاضها قومه بكل قوة وبسالة أمام خصومهم من قبيلة كِنْدَة، إذ يقول⁽²⁾:

وَمِنْ حُجْرٍ قَدْ أَمَكَنْتُكُمْ رِمَاحُنَا وَكَائِنْ رَدَدْنَا عَنْكُمْ مِنْ مُتَوَجٍّ
وَقَدْ سَارَ حَوْلًا فِي مَعَدٍّ وَأَوْضَعَا يَجِيءُ أَمَامَ الْأَلْفِ يَرْدِي مَقْنَعَا
ضَرَبْنَا يَدَيْهِ بِالسُّيُوفِ وَرَأْسَهُ غَدَاةَ الْوَعَى فِي النَّقْعِ حَتَّى تَكْنَعَا
بِكُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنَّدٍ حَمِيدٍ إِذَا مَا مَاطِرُ الْمَوْتِ أَقْلَعَا

(1) الأسدي، عمرو بن شّأس. شعر عمرو بن شّأس الأسدي: 34

(2) الأسدي، عمرو بن شّأس. شعر عمرو بن شّأس الأسدي: 32، 33

لقد استعمل الشاعر مفردات الحرب (الرماح والسيف) مع ما وُصفت به من صفات (رقيق الشفرتين- مهند- حميد)؛ ليزيد من تكثيف الدلالة في الخطاب الشعري؛ وليفصح عن عاطفته الجياشة بالفخر والحماسة الدالة على القوة والشجاعة؛ ولما للسيف من أهمية عند العربي آنذاك، إذ يُعدُّ أهم أدوات القتال عنده، وعنوان الفروسية والشجاعة والإقدام لديه. هذا فضلاً عن مجيئه في بناء صورة حربية أراد الشاعر أن يبرزها بكل تفاصيلها؛ ليؤكد للمتلقي مكانة قومه، وشدة بأسهم، وشجاعتهم في ساحات الوغى.

الخاتمة:

توصّل البحث إلى أن الشاعر عمرو بن شأس الأسدي كان ذا صلة وثيقة بالبيئة التي عاش فيها، واستقى منها معجمه الشعري فاحتلت المفردات الطبيعية الصامته دوراً بنوياً في النص الشعري، فكانت ذات فاعلية عالية في الوصول بالنص إلى أقصى طاقات التعبير؛ وذلك بتعدد دلالاتها وفقاً للسياق الذي وردت فيه، كما أظهر البحث أيضاً مقدرة الشاعر على توظيفه مفردات الطبيعة الصامته في سياقاته الشعرية المتعددة الأغراض، ورسمه بها صوراً فنية واصفة لكل ما كانت تقع عليه عيناه في حياته أو أحس به، فعقد علاقة مشابهة بين تلك المفردات الطبيعية وبين ما يريد البوح به للمتلقي؛ ليزداد المتلقي خبرةً عن واقع الشاعر وبيئته الطبيعية، ويثير في نفسه الإحساس بجمال الوصف، وروعة الموصوف.

المصادر والمراجع:

- (1) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، د.ط، بيروت، 1980م.
- (2) ابن الجراح، أبو عبد الله محمد بن داود. من اسمه عمرو من الشعراء. تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1991م.
- (3) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. جمهرة أنساب العرب تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1403هـ.
- (4) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط1، بيروت، 1971م.
- (5) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1 - بيروت، 1987م.
- (6) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1417هـ.
- (7) ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسن. تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 1415هـ.
- (8) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ.
- (9) الأسدي، عمرو بن شأس. شعر عمرو بن شأس الأسدي، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، دار القلم، ط2، 1403هـ.
- (10) البُرِّي، محمد بن أبي بكر بن عبد الله التِّلمساني، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، نقحها وعلق عليها: د محمد التونجي، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، الرياض، 1403هـ.
- (11) البغدادي، أبو الحسين عبد الباقي بن قانع. معجم الصحابة، تحقيق: صلاح بن سالم المصراي، مكتبة الغرباء الأثرية، ط1، المدينة المنورة، 1418هـ.
- (12) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود. أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1417هـ.

- (13) التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام. كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهرسه العامة: أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2000م.
- (14) الجاسم: أحمد موسى. شعر بني أسد في الجاهلية-دراسة فنية، دار الكنوز الأدبية، ط1، بيروت، لبنان، 1995م.
- (15) الجبوري، يحيى، الملابس العربية في الشعر الجاهلي، دار الغرب الإسلامي، د.ط، بيروت-لبنان، 1989م.
- (16) الجمحي: محمد بن سَلَام. طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمد محمود شاكر، دار المدني، د.ط، جدة، د.ت.
- (17) درابسة، محمود محمد. أثر البيئة الطبيعية في الشعر عند النقاد العرب القدماء، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السنة الثامنة، العدد: العاشر، 1415هـ.
- (18) سعفان، أحمد حسين عبدالحليم، شعر عمرو بن شأس الأسدي- دراسة موضوعية فنية، مجلة كلية الآداب، كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد 15، 1994م.
- (19) العبودي، حازم فاضل محمد، شعر عمرو بن شأس الأسدي، دراسة في الأغراض الشعرية. مجلة دراسات إسلامية معاصرة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة كربلاء، العراق، السنة: 5، العدد: 10، 2014م.
- (20) القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: الحبيب ابن الخوجة، د.ن، د.ط، تونس، 1966م.
- (21) القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحُصْري، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، د.ط، بيروت، د.ت.
- (22) كحيل، حنين عز الدين إسحاق. التشكيل الجمالي في شعر عمرو بن شأس الأسدي، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين، 2015م.
- (23) المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران. معجم الشعراء، تصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1402هـ.
- (24) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تحقيق: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، د.ط، د.ت.